كينيا السمراء...
حاضنة كل أسرار افريقيا

كينيا. عندما تلقيت دعوة للسفر إلى أدغال كينيا السمراء ترددت بعض الشيء، ليس لأنني خفت خوض مغامرة السفاري في الغابات الإفريقية العذراء، و إنمّا بسبب ما قرأته عن التدابير الوقائية الصحيّة التي عليّ اتخاذها قبل الذهاب إليها، فمعظم المواقع الإلكترونية تؤكد ضرورة أخذ لقاحات الحمى الصفراء و الملاريا و الكوليرا، و لكن عندما أكدّت لي الموظّفة في قنصلية كينيا في بيروت أن لا حاجة إلى اللقاحات اطمأنت نفسي و لم أتقيد بما أوردته المواقع الإلكترونية.

حلقّت في الفضاء متوجهة إلى كينيا و في مخيلتي مطبوعة صورة شجرة الأكاسيا الكينية يقف في ظلّها رجل من إحدى قبائل كينيا الإثنتي و الأربعين، تزينت أذناه بحلق كبير و اكتسى برداء أحمر بسيط زيّن بالحلي المشغولة يدويًا، و يحمل في يده رمحًا، فيما يخترق صمت الصورة قرع طبول يراقص إيقاع الطبيعة.

خلال مغامرة مخيلتي أعلن ربان الطائرة ضرورة ربط الأحزمة لأننا سنهبط في عالم كينيا.

عدت إلى الواقع الجوي و اختلست النظر من كوة الطائرة.

بدا المشهد مهيبًا، فسقف السماء بدأ يتلون بخيوط الفجر الأرجوانية تخترق ديوجة الليل، و بدت لي السحب البيضاء التي تغلّف نيروبي تلاعب الشمس بين السماح لها بنشر نورها و حجبه فتُخضعها لمزاجها الخاضع أصلاً لحركة الرياح.

حطت الطائرة في المدرج و بدأت أسرع خطواتي نحو العالم الكيني، الذي يبدو أن هناك الكثيرين ممن يشغلهم

استقبلتنا ليليان المرشدة السياحية برفقة فرانسيس و ركبنا سيارة رباعية الدفع لتبدأ المغامرة.

بعدما اخترقنا منطقة المطار دارت بنا السيارة في شوارع العاصمة نيروبي، و كما كل عواصم العالم و مدنه الكبرى كانت ساعة الذروة الصباحية، فزحمة السير خانقة و يقف بين السيارات الباعة الجوالون يعرضون بضاعتهم عليك، فتقوم بمساومة أثناء انتظار الإشارة الخضراء أو حتى الحمراء، فبعضهم لا يتقيد بالإشارة و أحيانًا قد يفضل شرطي السير أن يخفف الازدحام على خط سير معين و لا يتقيد بما تأمر به الإشارة الحمراء.

يتحرك هذا المشهد وسط طبيعة فاحشة الثراء، رحبة لا حدود لها ولألوانها، فالأشجار مثقلة بالأغصان يتنقل عليها بخفة طير المارابوت و كأنه يشارك سكان المدينة همومهم و أفراحهم، فهو يحلق بحريّة من دون أن يقلق من صياد ماهر يتربص به.

ظلت السيارة تدور بنا إلى أن وصلنا إلى فندق فيرمونت حيث رحّبت بنا موظفة الاستقبال وسلّمتني مفتاح غرفتي، الذي كان بالنسبة إلي مفتاح أسرار كينيا.

دعتنا ليليان قبل الصعود إلى الغرف إلى تناول الفطور في أحد المطاعم الموجودة في الفندق، وكان على التراس.

عرفت السر الأوّل من دون مفتاح بل عن طريق معدتي، فالطعام شهي جدًا إلى درجة الشره وإن لم تسمع نداء شبع معدتك قد تصاب بالتخمة.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

تناولت فنجان قهوة كينية له نكهة لذيذة جدًا، و بعدها صعدت إلى الغرفة المشرفة على الطريق الرئيسي، و كعادتي رحت أتعرف إلى المدينة عبر النافذة التي بالطبع لم تشبع فضولي.

الوقوف في الكواليس يدفعك للخروج و المشاركة في مسرح الحياة.

عدت ونزلت فإذا بالبواب يسلم علي قائلاً «جامبو». بدت على ملامحي علامات التساؤل عن معنى الكلمة فاستدرك قائلاً «مرحبًا»، ففهمت المعنى.

أثناء وقوفي أمام الفندق ظهر رجل الماساي بردائه الغريب المزدان بالحلي و يضع على كتفيه شال «الشاوا» مرددًا «جامبو».

بدأت ألتقط الصور وكأن بي أخاف خسارة المشهد إلى أن أتى فرانسيس ليقلني إلى ميتم الحيوانات برفقة فاطمة.

جلنا في ميتم الحيوانات و كانت الجولة مقدّمة لما سوف أراه في الأدغال الحقيقية.

فهنا تعيش الحيوانات الوحشية التي فقدت أهلها إلى أن تصبح قادرة على مواجهة عالمها الحقيقي.

بدا العاملون في هذا الميتم يعرفون كل واحد من الحيوانات و تآلفوا معه، وهي أيضًا تآلفت معهم.

تخيّل أنهم يطعمون نمر التشيتا بأيديهم، و حمسني أحدهم لالتقاط صورة معها و لكن زميلي في الرحلة حذّرني قائلاً: «ماذا لو أنها خافت منك؟ فتصبحين في خبر كان.

أحبطت عزيمتي.

و بعد الجولة توجهنا إلى مطعم «رينجرز» الموجود في الميتم الذي تميزت هندسته الداخلية بالأسلوب الأفريقي المطّعم بالنمط الإنكليزي جلسنا على الشرفة وتناولنا الغداء وكان لذيذًا.

بعد غذاء المعدة توجهنا إلى «بوماس أوف كينيا»، و هو مسرح تقام عليه عروض للرقص الكيني الفلوكلوري.

لفتني حشود التلامذة برفقة أساتذتهم يجلسون باهتمام و تنظيم على مقاعد المسرح الدائري الذي تتوسطه منصة العرض.

ساد المسرح الصمت و بدأ قرع الطبول يرافقها صوت بدا كأنه يناجي، فأنا لا أعرف اللغة السواحلية التي يتحدثها معظم سكان كينيا.

و إذ بمجموعة شبان و شابات يظهرون على المسرح بملابس أفريقية مزيّنة بحلي ترافق الرقص و إيقاع الطبول، كل رقصة تعبر عن طقس من طقوس القبائل الكينية.

تأملت في التلامذة الجالسين الذين كانوا ينظرون بشغف إلى اللوحات إلى أن بدأت رقصة الاحتفال بمناسبة سعيدة فبدأوا يتفاعلون معها بخفر، يربتون بأيديهم على ركابهم، فتحوّل المشهد إلى تماوج الأيادي و الأكتاف على إيقاع قرع الطبول.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

نزلت إلى محيط منصة المسرح عندما بدأت رقصة «سميا»، و هي رقصة الزواج، و فوجئت وأنا ألتقط الصور بأنهم يسحبونني لمشاركتهم الرقصة... كانت تجربة فريدة فقد أصبحت جزءًا من المشهد المسرحي.

تركنا المسرح و توجهنا إلى القرية التراثية حيث توجد أكواخ من القش توزعت على شكل دائري، و هي مقسمة بحسب المرتبة العائلية، فالكوخ الكبير للزوج تتحلّق حوله أكواخ الزوجات، ففي كينيا تعدد الزوجات قد يصل إلى سبع بحسب تقاليد كل قبيلة.

و لكن لم أعرف سبب اختلاف حجم الأكواخ بين كوخ زوجة و أخرى.

عدت إلى الفندق و صور كينيا الواقعية نُسخت في ذاكرتي، منتظرة صورًا أخرى في الأيام المقبلة.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١